

التحليل البصري في نقوش الطاسيلي

مقاربة سيميولوجية لأشهر الرسائل البصرية (البقرة الباقية)

قدور عبد الله ثاني*

تمهيد:

تعتبر الجزائر من بين الدول الغنية بالنقوش الصخرية وهي تنتشر في عدة مناطق وخاصة الطاسيلي في الجنوب الشرقي من المناطق الصحراوية. وتعد هذه المواقع متحفا في الهواء الطلق تعرض مئات النقوش التي خلفها إنسان العصر البرونزي، من خلال رسومات متنوعة والتي تجسد بعضا من مظاهر حياته اليومية. غير أن هذه النقوش تبقى عذراء من الناحية العلمية، ما زالت لم تخضع للفحص الأكاديمي، الشيء الذي ترك المعلومات حولها قليلة جداً إن لم نقل منعدمة لتبقى تكتنز في جنباتها الكثير من الأسرار حول تاريخ المنطقة و عراقتها. وما إدراج منطقة الطاسيلي ضمن التراث العالمي إلا دليل على ذلك.²

* أستاذ سيميولوجية الصورة، قسم علوم الإعلام والاتصال، جامعة وهران (الجزائر)

¹ د. هيو أحمد : الأبجدية : الكتابة و أشكالها عند الشعوب . سورية اللادقية ، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط1، سنة 1984 ، ص14

² محمد عيلان. الفنون الشعبية الجزائرية(واقع وأفاق). مجلة التواصل. العدد6. جوان 2000. ص205.

وقد شجع هذا الاكتشاف على القيام بدراسات وأبحاث مكنت من جرد كم هائل من النقوش المختلفة، أبانت عن تعاقب حضارتي العصر الحجري الحديث ثم العصر البرونزي وعن استعمال تقنيات مختلفة، كتقنيتي النقر والصقل. وتضم هذه النقوش مواضيع مختلفة من أبرزها الحيوانات بأحجام وأشكال متنوعة، إضافة إلى أشكال آدمية ومجموعة من الرسوم الهندسية والآلات الحربية كالأسلحة، والخنجر، والدروع، والأقواس ورموز توحى بمعتقدات وممارسات يومية.³

إلا أن العوامل والأسباب التي دفعت بإنسان العصر البرونزي للنقش على الحجر تبقى غامضة، وقد تكون تعبيراً فنياً أو تجسيدا لشعائر عقائدية. بالإضافة إلى أهميته الأركيولوجية، ويشكل الطاسيلي، قبلة للسياح من كل أنحاء العالم. و من المعروف أن علماء الأنثروبولوجيا وعلم الآثار قد عُنوا بدراسة آثار ومخلفات الإنسان القديم، خاصة النقوش والرسوم والصخور والكهوف؛ لإبراز العلاقة بينه وبينها، التي تخضع بعد مقارنتها بدراسات مماثلة تُجرى على الشعوب المعاصرة⁴ (للمعالجة الإحصائية الدقيقة بغرض الوصول إلى نتائج ودلائل للاستدلال على حقائق الحياة القديمة التي كان يحيها الإنسان القديم خلال العصور الحجرية ثم الإنسان الحديث في العصور الحجرية والتاريخية)⁵.

سيناريو معقول للبدايات:

³ نصر عبد العزيز عليان. الفنان الأول. مجلة العربي. العدد. 496. مارس 2000.

ص 92.

⁴ الخضر عبد الباقي محمد. أفريقيا.. منشأ الحضارة

الإنسانية <http://www.islamonline.net/Arabic/Science/2002/02/Article5.shtm>

⁵ المرجع نفسه.

إن الآثار الحديثة نسبيا والتي لا يزيد عمرها على مائة ألف سنة مثل بعض الشخبطات وأشكال بدائية، ربما تكون مقصودة وقد تكون من فعل عوامل طبيعية بحتة، والأهم من ذلك قد لا تكون مقصودة، وقد لا تكون تلك الآثار الفنية هي الأقدم، فباطن الأرض مليء بما لم يكتشف لحد الآن، وعلى الرغم من أننا لا نملك نقطة البداية فإننا نملك تاريخا طويلا لاحقا على تلك النقطة المجهولة ونظرا لتنوع الثقافات الإنسانية وتنوع الظروف التاريخية وبالتالي تنوع أساليب التفكير، فقد تنوعت نظريات الفن أيضا.

ومن الممكن الافتراض أن البدايات الأولى في التشكيل كانت من اختراعات النساء والأطفال وليس من اختراعات الحكماء من الرجال. كانت المرأة مجبرة على الاختباء في الكهف الحصين لفترات قد تطول وذلك بسبب الحمل وإرضاع والعناية بالأطفال، وهي أمور لم تكن في حسابان الرجل، والذي لم يكن على الوعي بعلاقته بذلك الطفل. كان بداية الفن نوعا من الشخبطة غير المقصودة على التراب الناعم، ضربا من الشرود من هموم اللحظة إلى اللعب، كان الطفل معجبا بآثار قدميه على تراب الكهف الناعم، ولأنه طفل، أخذ يكرر طبع قدميه ويضحك من اكتشافاته، ولاحظت الأم الجائعة المهمومة تلك العلاقة بين آثار الأقدام الصغيرة والطفل نفسه، بين الأصل والظل، فأخذت هي الأخرى تلعب ونسيت بؤسها في الفن ومن يومها احترفت الفن بقصد الحصول على الأشكال الجميلة ومحاولة لرسم الثور الجدي أو حتى الأرنب أو الفأر.⁷

⁶ نصر عبد العزيز عليان. الفنان الأول. مجلة العربي. العدد. 496. مارس 2000. ص 92.

⁷ المرجع نفسه، ص 93.

ويرى كثير من المؤرخين ما قبل التاريخ، أن هذه التصاوير والنقوش هي المحاولات الأولى لعملية الكتابة، ويفسرها البعض الآخر على أنها علامات الانتماء، التي تستطيع أن تشير إلى الملكية أو المصدر، والتي تكون من أولى شعارات (logotypes) الإنسان القديم. فإذا أراد إنسان أن يرسل رسالة يقول فيها إنه ذاهب إلى صيد السمك فانه يرسم صورة رجل بيده قسبة في رأسها شخص متجه نحو بحيرة سمك. وهو طور مرت فيه جميع الشعوب القديمة التي تحضرت⁸.

الكتابة التصويرية ورمزية الذكورة والأنوثة

يذكر جورج جون Georges Jean : "أن المؤرخين ما قبل التاريخ يفكرون اليوم، أن الرسوم والنقوش النائمة على الصخور، تشكل نوع من الكتابة الرمزية".⁹ وهو الطور الذي استنبط فيه الإنسان صوراً ترمز إلى معنى معين، فمثلاً صورة الشمس للتعبير عن الضياء، وتصلح أن تكون رمزا للنهار، وكيف نمثل الجوع؟ برسم رجل يده في فمه. ولا يزال هذا العمل اللاشعوري موجوداً حتى يومنا هذا، فلإشارة إلى شيء ما، فالمطلوب إفهامه بعلامة أخرى مثل مركز البريد فإننا نشير إلى أعمدة التلغراف، ونشير إلى الخطر برسم جمجمة، إلى آخره..

ومن المعروف أننا نستطيع جمع العلامات الممثلة للأشكال التصويرية (مشاهد للصيد والحيوانات وغيرها..). إلى صنفين أو فئتين من هذه المناظر: المستقيمات، العصيات، والخطوط

⁸ www.google. HISTOIRE de l'ECRITURE نشأة الكتابة ، ومرابطها في الشرق الأوسط

⁹ JEAN, George Langage de signes - l'écriture et son double, Gallimard,1989

من كل الأنواع من جهة، والعلامات المغلقة مثل الأشكال البيضوية، والمثلثات والدوائر من جهة أخرى¹⁰.

- تجتمع التصاوير الأولى في شكل رمزية للرجولة التي تمثل أسس الذكورة (قضيبيية) الأولى في العالم.
- وتلتصق الثانية إلى رمزية شبه هستيرية بدائية، تستحضر الأسس الأولى للأنوثة.

يتبين لنا من خلال ما عرضنا من نماذج للكتابة التصويرية، أن الصورة قد ترمز إلى جملة كاملة، أو تعبر عن فكرة، أو تشير إلى موضوع بكامله، وهذا يعني أن الصورة المنقوشة على الحجر، أو الجلد أو الخشب أو المعدن لا ترتبط بلفظ معين، بل يستطيع الكل أن يفهمها بلغته الخاصة، فمثلا شكل القدمين يعني "المشي" وأن العين الدامعة تعنى "الحزن"¹¹.

أما المشي إلى أين ولماذا؟ أو الحزن لماذا؟ و من الذي يحزن، فهذه أمور لا تستطيع الصور أن تعبر عنها، إلا إذا استعملت صورة واحدة لكل من هذه الأغراض المذكورة، فالكلمة المصورة هي الخطوة، الحقيقية باتجاه الكتابة، وأن أغلب لغات العالم عرفت الكتابة التصويرية، و الكتابة المصورة، و خير مثال على ذلك الكتابة الهيروغليفية¹² "hiéroglyphes" المصرية، والكتابة

¹⁰ المرجع نفسه

¹¹ د هبو أحمد : الأجدية : الكتابة و أشكالها عند الشعوب . سورية اللادقية ، دار الحوار للنشر و التوزيع، ط1، سنة 1984، ص15.

¹² "hieros" وتعني مقدس "gluphein" وتعني النقش. تعبير يوناني مكون من مقطعين ومعناه « الكتابة الدينية أو الكهنوتية» وذلك على أساس أن الكهنة المصريين هم الذين ابتدعوا هذا الخط واستعملوه في كتاباتهم ذات الطابع الديني. ويؤكد الباحثون

السومرية Sumérienne والكتابة الصينية وحتى خط التيفيناغ¹³، الذي تمتاز به مناطق الطاسيلي.

إن المؤرخين والباحثين اختلفت آراؤهم ومرجعياتهم في أصل التيفيناغ، حيث وقف بعضهم حائرا ومبهورا أمام التشابه الموجود بين بعض حروف هذا خط والحروف الهيروغليفية والإغريقية والعربية واللاتينية والعبرية وغيرها، وحتى في القارة الأمريكية وعند (المايا) على الخصوص ولاسيما في ما يتعلق بكتابتهم للأعداد. واعتبر الباحث سيدي حيدة في مؤلفه الأبجدية (التيفيناغ) وليدة شرعية لأقدم أبجدية عرفتها البشرية، ومنها اشتقت خطوط كتابتها.

إن كتاب (الدرس الخيميائي)، يتضمن عدة فصول منها فصل (الكتابة- اللغز)، أشار فيه المؤلف بالدرس والتحليل إلى أن الأركيولوجيين والباحثين الذين وقفوا أمام نقاش خط (التيفيناغ) أكدوا صعوبة فك شفرة رموز هذا الخط، وأرجع سبب ذلك إلى عدم معرفة هؤلاء بالأصل الحقيقي له، مستندا بنموذج وقف أمامه الباحث «جورج مارسلي» حائرا وهو ينتقل بين

وعلماء المصريين أن الهيروغليفية هي أصل لغات العالم كله ماعدا أبجديات شرق آسيا، حيث انتقلت الهيروغليفية إلى الفينيقيين والآراميين والأنباط عبر سيناء ومن خلال الأبجدية السيناوية التي قام عمال مناجم الفيروز بتطويرها وتبسيطها عن الهيروغليفية ويقول عالم المصريين «سير ألان جارنر» إن كتابة اللغة المصرية القديمة ظلت قائمة على أساس «الصورة» في كافة حقب التاريخ المصري القديم، بمعنى أنها كانت كتابة مصورة تتكون من صور لأشكال معينة ومضافة إليها بعض الرموز للتعبير عن العناصر الصوتية.. أي أن كتابة اللغة المصرية القديمة كانت تقوم على أساس نوعين من العلامات أو الرموز: الصور أو الرموز المستخدمة في الكتابة لتمثل أو لتدل على « معنى » شيء أو فكرة. المستخدمة لتصوير «كلمة» كاملة أو لتصوير حروف معينة ذات دلالات صوتية معينة وتستخدم هذه الرموز للدلالة على الأصوات المنطوقة..

¹³ الكتابة البربرية الليبية، خط سكان شمال إفريقيا.

(الطوارق- الهقار) محاولا تحديد اتجاه العبارات المنقوشة على الصخور بخط (التيفيناغ).¹⁴

"أما الصعوبة التي تقدمها الطريقة التصويرية، فهي التعبير عن الأشياء والأغراض التي يصعب تصويرها حقا، ومن الأمثلة على ذلك أسماء العلم وأسماء المعاني، وهناك ثلاثة عناصر أساسية وهي الأعمدة الضرورية التي قامت عليها كل الكتابات البشرية من دون تأثير غيرها و ذلك لدى البحث في كل أنواع الكتابات البشرية، وهذه العناصر الثلاثة هي:

- تصوير المحسوس كما هو جزئيا كما يظهر في الطبيعة.

- الرمز إلى المجرّد بصورة معبرة .

- الاستعانة بصور الأشياء المحسوسة المتوفرة، للدلالة على الأشياء التي يصعب تصويرها و تتقارب معها في اللفظ.

سيمولوجية الاتصال أشهر نقوش الطاسيلي (البقرة الباكية)

لقد ارتبط التشكيل البصري على الدوام وعبر القرون بالحضارة. حتى ولو كانت بدائية، وعلى العموم يدين تصور الإنسان الحديث عن بابل واليونان القديمة، أو العصر الوسيط، أو في العصور الحجرية القديمة إلى البصر؛ أي إلى الصورة عوض القراءة¹⁵. وإن الهدف من مساءلة صورة النقوش هو استخراج التمثلات الذهنية التي تبين هذا النوع من الإنتاج، وهي تمثلات تتحكم في السلوكات اليومية للإنسان وفي القيم التي ينتجها. واستطاع بارث Roland Barthes بدراسته لهذا النوع

¹⁴ عبد الغني سيدي حيدة . الدرس الخيميائي

<http://www.albayan.co.ae/albayan/book/2003/issue254/arabiclib/3.htm>

¹⁵ حميد سلاسي . ما هي الصورة؟ موقع سعيد بنكراد، مجلة علامات، العدد5، 1996

من العلامات، أن يفضح تلك الثقافة/ الإيديولوجيا التي تختبئ وراء ما يقدم نفسه كطبيعة يتداولها أفراد مجتمع ما بكل بداهة وعفوية¹⁶. ومن هنا فقد أشارت الدراسات إلى أن الرسوم والرموز التي تحملها تلك النقوش بها دلالات هامة على أن الصيادين الذين كانوا يقيمون في تلك المناطق والكهوف بجنوب الجزائر كانوا يمتلكون قدرة في الإبداع والفكر في استخدام لغات معقدة في التواصل فيما بينهم. كما كشفت الدراسة أن تلك النقوش كانت على شكل هندسي رائع، كما اكتشفت داخل الكهف آلات أخرى مصنوعة من العظام، التي استدللت بها الدراسة على أن القدماء في جنوب الحوض البحر الأبيض المتوسط، كانوا أقدم من عرف السلوك الحضاري قبل أكثر من 35.000 عام من الأوروبيين¹⁷، طبقا لتأويلات الكشوف، ودراسة النقوش.

كان الفن إذن وسيلة لكسب القوت كأى وسيلة أخرى كانت سكين الصوان آلة للسيطرة على جسم الحيوان، وكان الرسم آلة للسيطرة على روح ذلك الحيوان، وكانت الرسومات تهمل بعد تنفيذها واستنفاد غرضها؛ أي بعد القيام بطقوس السيطرة على الروح وذلك بتمثيل عملية الصيد نفسها، وكثير من هذه الرسومات مضروبة بسهام حقيقية، وكثير منها مرسوم وهو مضروب بسهام. بعض هذه الرسومات منقذة في مغاور عميقة مظلمة وكأنها سر من الأسرار القدسية، وبعضها في أماكن أخرى منقذة فوق الأرض نوع من الإعلان عن الرسم والرسام.

¹⁶ عبد الرحيم كمال. سيميولوجية الصورة الفوتوغرافية موقع محمد اسليم. مجلة علامات. العدد 16. 2001. www.google.fr

¹⁷ الخضر عبد الباقي محمد. أفريقيا. منشأ الحضارة الإنسانية

<http://www.islamonline.net/Arabic/Science/2002/02/Article5.shtml>

مما يدل على اختلافات في المفاهيم بين جماعات الصيادين المتباينة المتباعدة النشاط، والتي من الصعب افتراض وجود علاقات أو تبادل للتجارب بينها. بعض تلك الجماعات كانت في أوربا وبعضها الآخر في صحاري إفريقيا والجزيرة العربية، وبعضها في أواسط آسيا. وكل ما يجمع هذه الفئات البشرية المتباعدة في أنحاء العالم، هو فطرة صيد الحيوانات، وعملية الرسم عبارة عن طقس من الطقوس الدينية.¹⁸

فإن النقوش هي فنون عملية تعكس الواقع الاجتماعي للمجتمعات البدائية، والتي ترتبط ارتباطا وثيقا بالحياة الاجتماعية التقليدية، وبسلوك الإنسان وقواعد عمله في الصيد. هي تراثية محافظة ترتبط بالتراث الحضاري وبالتقاليد والعادات والقيم الاجتماعية والدينية الأخلاقية¹⁹. فالصور في النقوش البدائية، تحمل رؤية جمعية، وليس لها عمق مرئي على مستوى الرسم، بل هي صورة مسطحة بدون زوايا، فهي نفعية تعليمية²⁰.

ومن بين أشهر هذه النقوش التي تركها سكان منطقة الطاسيلي الأقدمون في الجنوب الشرقي للجزائر، (البقرة الباكية) وهي عبارة عن نقش على صخرة عملاقة لصورة بقرة تبكي وتذرف الدموع بغزارة، اختلف الاختصاصيون في علم الآثار والسيميولوجيا والحضارات القديمة حول تفسير سبب البكاء. والقراءة السيميولوجية الصحيحة لحزن تلك البقرة

¹⁸ نصر عبد العزيز عليان. الفنان الأول. مجلة العربي. العدد. 496. مارس 2000. ص 95.

¹⁹ محمد عيلان. الفنون الشعبية الجزائرية(واقع وآفاق). مجلة التواصل. العدد. 6. جوان 2000. ص 205.

²⁰ المرجع نفسه. ص 207.

الرمز، فمنهم من يرى أنها كانت تبكي من شدة القسوة التي كانت تعاني منها يوميا، من طرف هذا الإنسان القديم، من حمل الأسفار، والحرث والبذر، وغيرها من الأعمال الشاقة، خاصة وأن كثيرا من الحيوانات في تلك الحقبة الزمنية لم تروض بعد²¹.

غير أن أقرب تلك التفسيرات إلى العقل هي أن الأقدمين يريدون إعلام من يأتي بعدهم بأن المنطقة التي كانوا يسكنوها كانت مروجاً وسهولاً خصبة ومراعي ممتدة إلى ما لا نهاية، لكن الجفاف حولها إلى صحراء قاحلة أبكت الحيوان، والإنسان معا. فأصبحت (البقرة الباكية) هي رمز الطاسيلي²².

21 النقوش بقرة باكية _____ بقرة جالسة AL BAYAN NEWSPAPER

جريدة البيان. htm

22 المرجع نفسه.